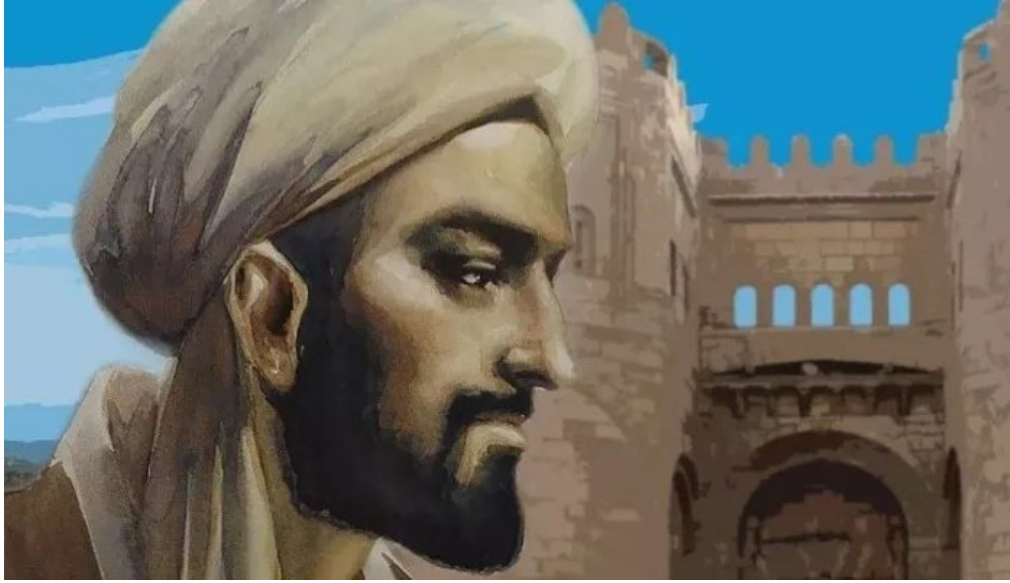


ابن خلدون في مصر □ قاضٍ أثار الجدل وقرأ مستقبل المنطقة وتنبأ بصعود العثمانيين



الأربعاء 24 يونيو 2026 04:20 م

في تاريخ الحضارة الإسلامية، قلّما حظيت شخصية فكرية بما حظي به المؤرخ والفيلسوف وعالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون من اهتمام وجدل امتد لقرون طويلة □ وبين مختلف المحطات التي شكّلت حياته الفكرية والسياسية، تبقى مصر واحدة من أبرز البيئات التي ترك فيها بصمة عميقة، كما تركت هي بدورها أثراً بالغاً في مسيرته العلمية والإنسانية □

وصل ابن خلدون إلى مصر عام 1382م بعد سنوات طويلة من التنقل بين عواصم المغرب والأندلس، هارباً من اضطرابات السياسة وصراعات السلطة التي لازمته في مختلف مراحل حياته □ وقد وجد في القاهرة المملوكية آنذاك ملاذاً آمناً ومركزاً حضارياً مزدهراً، حتى وصفها بأنها "حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم"، معتبراً إياها القلب النابض للعالم الإسلامي في عصره □

ورغم هذا الإعجاب الكبير بمكانة مصر ودورها الحضاري، لم يتردد ابن خلدون في تسجيل ملاحظاته النقدية حول بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فيها □ فقد رأى أن وفرة النعم والاستقرار النسبي أسهما في انتشار حالة من التراخي والانشغال بمتع الحياة لدى قطاع من المجتمع، وهي الملاحظات التي جاءت منسجمة مع نظريته الشهيرة حول نشوء الدول وازدهارها ثم دخولها مراحل الضعف والانحدار □

استقبال استثنائي ومكانة رفيعة

ما إن وطئت قدما ابن خلدون أرض القاهرة حتى لقي استقبالاً لافتاً من السلطان المملوكي الظاهر بركوق وكبار رجال الدولة والعلماء □ ولم يقتصر الأمر على التكريم المعنوي، بل تولى التدريس في الأزهر الشريف وعدد من المدارس الكبرى، وسرعان ما أصبح من أبرز الوجوه العلمية في العاصمة المصرية □

اجتذبت دروسه أعداداً كبيرة من الطلاب والعلماء، كما نال مناصب أكاديمية ودينية مهمة، أبرزها التدريس في المدرسة القمحية، إضافة إلى إدارة إحدى أكبر الخوانق الصوفية في مصر □ ووجدت أفكاره وتحليلاته التاريخية صدقاً واسعاً بين النخب العلمية التي رأت فيه عالماً موسوعياً يجمع بين الفقه والتاريخ والسياسة والفلسفة □

القضاء بين الإصلاح والخصومة

غير أن حياة ابن خلدون في مصر لم تخلُ من الصراعات □ فقد دخل معترك القضاء عندما عُيّن قاضياً لقضاة المالكية، وهو المنصب الذي كشف له حجم الفساد الإداري والمحسوبية داخل بعض المؤسسات القضائية □

اتخذ ابن خلدون موقفاً صارماً تجاه ممارسات الشهود والموثقين وبعض أصحاب النفوذ، وسعى إلى فرض معايير أكثر عدالة وشفافية □ إلا أن هذه السياسات الإصلاحية أثارت غضب كثيرين ممن تضررت مصالحهم، لتبدأ سلسلة طويلة من الخصومات والمؤامرات التي انتهت بعزله وإعادته إلى المنصب مرات عديدة □

وخلال سنواته الأخيرة، تولى منصب قاضي القضاة ست مرات متفرقة، في مشهد يعكس حجم الصراع الذي دار بينه وبين خصومه داخل المؤسسة القضائية وخارجها □ ومع ذلك، أجمع عدد من كبار المؤرخين المصريين على نزاهته واستقامته وحرصه على تطبيق العدالة بعيداً عن الضغوط السياسية والاجتماعية □

من العلم إلى دهايز السياسة

ورغم محاولته الابتعاد عن العمل السياسي بعد استقراره في مصر، فإن الظروف لم تسمح له بالبقاء بعيداً عن صراعات السلطة فقد وجد نفسه متورطاً في الأزمة السياسية التي شهدتها الدولة المملوكية عندما أيد مجموعة من الأمراء انقلاباً على السلطان الظاهر برفوق

وبصفته واحداً من كبار علماء المالكية في مصر، شارك ابن خلدون في التوقيع على الفتوى التي شرعنت الإطاحة بالسلطان لكن الانقلاب لم يدم طويلاً، إذ تمكن برفوق من استعادة عرشه بعد أشهر قليلة، ما وضع ابن خلدون في موقف بالغ الحساسية

سارع المؤرخ الكبير إلى تقديم اعتذاره للسلطان، مؤكداً أنه وقع الفتوى تحت ضغط وإكراه من قادة الانقلاب، وهو ما دفع برفوق إلى العفو عنه والإبقاء عليه ضمن الدائرة العلمية للدولة

نبوة العثمانيين وقراءة المستقبل

ومن أبرز الجوانب التي تكشف عمق رؤية ابن خلدون السياسية والتاريخية، توقعه المبكر للسيطرة العثمانية فقد رأى أن التوازنات السياسية داخل الدولة المملوكية تعاني اختلالات خطيرة، وأن القوة الصاعدة في الأناضول تمتلك المقومات اللازمة لفرض نفوذها على المنطقة

وبالفعل، تحقق هذا التوقع بعد أكثر من قرن على وفاته عندما تمكن العثمانيون من إسقاط دولة المماليك والسيطرة على مصر عام 1517م، في واحدة من أبرز التحولات السياسية في تاريخ الشرق الأوسط

رصد مبكر للنهضة الأوروبية

ولم تتوقف بصيرة ابن خلدون عند حدود العالم الإسلامي، بل امتدت إلى أوروبا التي كانت تعيش آنذاك بدايات تحولاتها الفكرية والعلمية الكبرى ففي مقدمته الشهيرة سجل ملاحظات مهمة حول ازدهار العلوم والفلسفة في المدن الإيطالية والأوروبية، مشيراً إلى النشاط العلمي المتزايد هناك وإلى كثرة المدارس ومجالس التعليم

ويعد هذا الرصد من أقدم الإشارات العربية والإسلامية إلى المقدمات الأولى للنهضة الأوروبية، ما يكشف عن قدرة استثنائية لدى ابن خلدون على قراءة التحولات الحضارية واستشراف مآلاتها المستقبلية

تأثير عميق في المدرسة التاريخية المصرية

لم يقتصر حضور ابن خلدون في مصر على المناصب والوظائف، بل امتد إلى التأثير الفكري العميق في أجيال من العلماء والمؤرخين فقد تتلمذ على يديه عدد من أبرز أعلام التاريخ المصري، وفي مقدمتهم تقي الدين المقرئ والحافظ ابن حجر العسقلاني، اللذان أسهما لاحقاً في ترسيخ مدرسة تاريخية متأثرة بمنهجه التحليلي ورؤيته لل عمران البشري

ومن خلال هؤلاء التلاميذ، انتقلت أفكاره إلى أجيال لاحقة من المؤرخين، لتصبح "المقدمة" أحد أهم النصوص المؤسسة للفكر التاريخي والاجتماعي في التراث الإسلامي

جدل مستمر حتى العصر الحديث

ومع مرور القرون، ظل ابن خلدون شخصية في الأوساط الثقافية المصرية ففي الوقت الذي اعتبره كثيرون رائداً لعلم الاجتماع ومؤسساً لفلسفة التاريخ، ذهب آخرون إلى انتقاد بعض أفكاره أو التشكيك في أصالة بعض نظرياته

ومع ذلك، فإن مكانته العلمية بقيت راسخة داخل المؤسسات الأكاديمية العربية والعالمية، حيث وصفه عدد من كبار المؤرخين والمستشرقين بأنه أحد أعظم العقول التي أنجبتها الحضارة الإنسانية

إرث يتجاوز الحدود

تكشف تجربة ابن خلدون في مصر عن فصل استثنائي من تاريخ التفاعل بين الفكر والسلطة والعلم والمجتمع فقد عاش في القاهرة نحو ربع قرن شهد خلالها أعلى درجات التكريم وأشد صور الخصومة، وشارك في القضاء والسياسة والتعليم والتأليف، وترك إرثاً فكرياً لا يزال محل دراسة وإعجاب حتى اليوم

وبينما تتنافس عدة دول على نسب ابن خلدون إلى تراثها الوطني، تبقى الحقيقة الأبرز أن فكره تجاوز الحدود الجغرافية والسياسية، ليصبح جزءاً من التراث الإنساني المشترك، ورمزاً لعالم استطاع أن يقرأ الماضي بعمق، ويستشرف المستقبل ببصيرة نادرة.